باسم الله الرحمان الرحيم

وحدة فقه السيرة النبوية

المحاضرة الثانية: خصائص السيرة النبوية

إعداد الأستاذ رشيد ناصري

تمهيـــــــد

تعددت سير الناس في العالم ممن يقدسهم أقوامهم ويقتدون بهم، لكن كل تلك السير حملت في طياتها من الغرائب والعجائب ما يقدح في صحتها، سواء من حيث:

- صحتها وثبوتها عن صاحبها ثبوتا يقينيا

- وضوحها في جميع مراحلها ودقة تواريخها وأحداثها

- واقعيتها وقابليتها للتطبيق، والتعيير بمعايير الواقع في ما يصلح لذلك.

- عملية وواقعية، ألا تخرج الشخص عن بشريته فتدخله في الخرافات والأساطير

- شمولها: بحث تكون مستوعبة لكل نواحي حياة الإنسان

وهذه الخصائص لا يمكن أن نجدها في كثير من سير الذين مضوا من أنبياء أو زعماء، إذ تكمن المشكلة إما في ثبوتها من خلال المصادر الموثوقة الثابتة، أو وضوحها في كل مراحلها، أو شمولها لكل مناحي الحياة، فالمسيح عليه السلام لا يمكن أن نجد في سيرته نموذج الزوج أو الأب، لأنه لم يتزوج، ولا نستطيع أن نجد في سيرته نموذج التاجر أو السياسي أو القائد العسكري ...، لأنه وظيفته كانت محصورة في البناء الروحي أساسا

ولا نجد الشق الواقعي والعملي في كثير من تلك السير الماضية لأنها قد ترفع أصحابها إلى مرتبة يستحيل تقليدها كسيرة كونفوشيوس مثلا أو بعض الأنبياء والأولياء الذين جعل منهم أتباعهم نماذج أقرب إلى الألوهية من البشرية، مما يجعل تلك السير غير قابلة للتطبيق...

على عكسها تميزت سيرة المصطفى بكمال الخصائص التي فقدت في غيرها ولم تتحقق إلا للمصطفى عليه السلام، وهي:

- تتميز بالصحة والثبوت:

فسيرة رسول الله ﷺ هي أصح سيرة رويت لنبي، إذ وصلت إلينا أحداثها الثابتة من أصح الطرق، وأقواها ثبوتاً، من خلال:

- ✓ القرآن الكريم، الذي يشكل أعلى مراتب الثبوت، إذ ثبت بالتواتر الذي يفيد القطع لا الظن، فأرخ لكثير من مراحل حياته ﷺ، كيتمه، وبعض حالات زواجه، وبعض حروبه وعلاقاته بأزواجه، وعلاقاته بالناس، ومعاناته مع قومه، علما أن القرآن الكريم كان مدونا في عصره ومحفوظا في الصدور وما تيسر من وسائل الكتابة.
- ✓ السنة النبوية، مستفيدة في ذلك من إعمال قواعد الجرح والتعديل فيها باعتبارها جزء من السنة، ومستفيدة من منهج المحدثين، وبعضها كتب في حياة الرسول ﷺ.

تناقلها عبر الأجيال مما يحميها من التحريف لأصولها التي استندت عليها، مثل ما وقع للأنبياء السابقين.

- خاصية الوضوح والدقة في جميع مراحلها:

فسيرته سيرته ﷺ في جميع مراحلها، منذ زواج أبيه بأمه إلى وفاته ﷺ بشكل مفصّل ودقيق مقرونة بسنوات حدوثها، دون انقطاع أو غموض، فهو كما قال بعض النقاد الغربيين: "إن محمداً ﷺ هو الوحيد الذي ولد في ضوء الشمس".

إن هذا الوضوح لم يتيسر مثله، ولا قريب منه لأحد من الرسل عليهم السلام، أو أحد من البشر، فلم نجد شيئاً عن طفولة الأنبياء السابقين، وشبابهم، ومعيشتهم قبل النبوة وكذلك فإننا لا نعرف إلا القليل عن حياتهم بعد النبوة، مما ورد في الكتاب والسنة، وأما المصادر الأخرى، غير الإسلامية، فهي موضع شك.

إن ميزة وضوح السيرة بتفاصيلها، يعطينا صورة مكتملة لشخصية الرسول ﷺ في كل جوانبها، وللظروف والأحوال التي مر بها، وصورة مكتملة للحياة الاجتماعية التي رافقت سيرة حياته الكريمة.

- خاصية الشمول والاستيعاب:

أنها كاملة شاملة لركيزتين أساسيتين: حقوق الخالق، وحقوق العباد ولا يصدق إيمان أو يقام دين إلا بهما، من خلال:
١- بيان حقوق الله: فبعض الديانات ليس فيها ذكر لله البتة مثل البوذية والديانات الصينية، والبعض الآخر تؤمن بوجود الله تعالى، لكن لا يعرف الإنسان فيها كيف يعتقد بربه؟ وبأي صفة يصفه؟... .
٢- بيان حقوق العباد: إذ في جميع الأديان لن تجد تفصيلاً للحياة الأسرية والعلاقات الاجتماعية، فضلاً عن الحياة السياسية والعلاقات الدولية، والشئون الاقتصادية.
تفحص في سير جميع الأنبياء والعظماء هل تجد إجابة على هاتين الركيزتين؟ من المؤكد أنك لن تصل إلى نتيجة مرضية إلا في دين الإسلام وسيرة النبي العدنان عليه الصلاة والسلام.

إذ إما آخرة أو دنيا، أما سيرة المصطفى فجمعتهن جميعا، قال تعالى: قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين

جات لكل مستويات تكوين الإنسان، جسد، روح، عقل

- خاصية الواقعية والفعالية:

فهي واقعية وقابلة للتطبيق في عمومها، وصالحة للتطبيق في كل زمان ومكان، ونذكر في هذا الجانب شهادة أحد رهبان الأقباط، نظمي لوقا، في كتابه محمد الرسول والرسالة، ص: ٥٥ (فليرجع إليه)، إذ أشار إلى أن سيرته ﷺ شملت كل حاجيات هذا الإنسان، سواء الراغب في أمر الدنيا والمتمسك بالآخرة، الذي يجب لمطالب الروح ولمطالب الجسد ورغباته مكان في هذا الدين، على عكس اليهودية والنصرانية التي خاطبت في الإنسان جانبا واحدا منه، إما روح فقط (عند النصارى) أو المادة (عند اليهود).

فالسيرة النبوية تحكي حياة إنسان أكرمه الله بالرسالة وأجرى على يديه كثيراً من المعجزات، وحقق من الانتصارات والنجاحات، ما لم يحققه بشر على وجه الأرض،

ومع ذلك لم تخرجه السيرة عن بشريته وإنسانيته، أو تجعل حياته كالأساطير، ولم يحط بهالة من التقديس، تضفي عليه أوصاف الألوهية، كما فعل كتّاب سيرة بعض الأنبياء، أو روايات البوذيين عن بوذا، قال تعالى: (قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا)(الكهف، ١١٠).

ولهذا ذكرت السيرة مواطن الثناء عليه، كما ذكرت المواطن التي عاتبه الله فيها.

- ✓ في الثناء عليه، قال: (وإنك لعلى خلق عظيم)
- ✓ في عتابه، قال تعالى في قصة أسرى بدر: (مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ لَوْلا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ). وقال في تحريمه للعسل إرضاء لأهله: (يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك تبتغي مرضاة أزواجك والله غفور رحيم)

خلاصة:

إن سيرة رسول الله ﷺ شاملة لجميع النواحي الإنسانية في المجتمع، مما يجعله القدوة الصالحة لكل داعية، وكل قائد ، وكل أب، وكل زوج، وكل صديق، وكل مربي، وكل سياسي، وكل رئيس دولة، وهكذا، ويجعل شخصيته شخصية بشرية معجزة في مجملها، وفي تفصيلاتها.

وهي سيرة متحركة وفاعلة في الزمان والمكان، وليست مجرد حكاية، بل هي منهج حياة يبني المجتمع فردا وجماعة، عاملا للدنيا ومستعدا للآخرة.

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته